لمـــاذا نُنـِّـــوه بالعروبـــة
ونُعلـــــى منـــــارها ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

● **العروبة وعاء الاسلام :**

فى تاريخ الأمة فترتان متميزتان منفصلتان أتم الانفصال . فترة ما قبل الإسلام . وفترة ما بعد الإسلام .

وبين هاتين الفترتين خط عليه ظلال من بقايا ليل مدبر . ولمعات من مطالع نهار مقبل . خط يشبه ما يعترض الأفق قبل انفجار الضوء وزحف الشروق ..

هذا الخط الفاصل يضع الخاتمة لعهد عاشه العرب كأى جنس من أجناس البشر . ويضع الفاتحة لعهد يعتبر ولادة جديدة لهذا الجنس ، وإبرازاً له فى أنحاء الوجود ...

ذلك أنه بظهور الاسلام ، وباختيار العرب حَمَلة له ، واختيار لغتهم لساناً للوحى الأعلى ، وانتهاء صلة السماء بالأرض فى هذه الرسالة الخاتمة ، بهذا كله أصبح للعروبة شأن آخر ، شأن ضمن لها الكرامة والخلود .

وسواء أكان العرب هم الجنس السامى كله ، كما يميل إلى ذلك بعض الباحثين ، أم هم قبيل محدود منه .

وسواء أكانوا منتشرين أصلاً بين المحيط الأطلسى والخليج الفارسى ، أم كانت جزيرة العرب هى وطنهم الواسع .

فإن الطور الذى دخل فيه العرب باحتضانهم الاسلام قد أنشاهم خَلْقاً آخر ، وأدخلهم التاريخ من أبواب شتى ، لا من باب واحد ، ثم استحكمت الوشائج بين العرب وهذا الاسلام ، فأصبح يُعرف بهم ويُعرفون به ، لا يغض من ذلك أن بقية ضئيلة من العرب ظلوا على ديانتهم الأولى هوداً أو نصارى .

نعم اقترنت العروبة والاسلام من أمد بعيد ، فى حضارة واحدة وتاريخ مشترك ، وشعر العالم كله بهذا الرباط القوى الجامع ، فهو إذا تصور الاسلام لا يستطيع أن ينسى العرب . الذين آمنوا به وطوَّفوا أرجاء العالمين برسالته ..

وهو إذا تصور العروبة لا يستطيع أن ينسى الدين الذى أعلى شأنها ، وخلّد أدبها ، وجمع من شتاتها دولة قدمت للإنسانية أزكى المثل وأرجح القيم .

إن الإسلام لا ينفك عن العروبة أبداً ، ذلك أن القرآن الكريم قد اختارت الأقدار له لغة معينة ينزل بها ، وتكون وعاء لهداياته ، وهى العربية .

قال الله سبحانه وتعالى : « **وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمين ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ . عَلَىَ قَلبكَ لِتكُونَ مِنَ الْمنذِرينَ ، بلسانٍ عَرَبِىٍّ مُبِين** »[1]

وقال : « **إِنَّا جَعلنَاهُ قُرآناً عَربياً لعَلَّكُمْ تُعقِلونَ ، وَإِنه فِي أُمِّ الكِتاب لَدَيْنا لعلِىٌّ حَكيمٌ** »[2] .

وأى قرآن يترجم إلى لسان آخر فهو قرآن على المجاز لا على الحقيقة ، إذ هو تفسير أجنبى للوحى العربى ، أو نقل لما تيسر من معانى القرآن نفسه إلى اللغات الأخرى ..

أما القرآن نفسه ــ أصل الإسلام ومعجزة نبيه وسياج دعوته ــ فإن الأسلوب العربى بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم عن جوهره ، ولا يمكن التجاوز عنه بتة .

ومقتضى هذا ، أن العرب أدنى الناس إلى فقه الرسالة وإدراك مراميها ، ولعلّ ذلك معنى الآية :« **وكَذلِكَ أنْزَلناهُ حُكْماً عربِيّاً** »[3]، سواء كان الحكم بمعنى الحكمة أو بمعنى السلطة .

---

(١) الشعراء : ١٩٢ ــ ١٩٥ .
(٢)الزخرف : ٣ ــ ٤ .
(٣) الرعد : ٣٧ .

يقول الأستاذ الزيات :

إن المسلمين اعتقدوا بحق أن لغتهم ـــ العربية ـــ جزء من حقيقة الإسلام لأنها كانت ترجماناً لوحى الله . ولغة لكتابه ، ومعجزة لرسوله ، ولساناً لدعوته .

ثم هذّبها النبى الكريم بحديثه ونشرها الدين بانتشاره ، وخلّدها القرآن بخلوده .

فالقرآن لا يُسمَّى قرآنا إلا فيها ، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها .
لذلك سارعوا إلى تعلمها والتكلم بها والتأليف فيها ، والتعصب لها ، والدفاع عنها ، والدعوة إليها ، حتى حلت محل الفارسية فى العراق . والرومية فى الشام ، والقبطية فى مصر ، والبربرية فى المغرب .

وأصبحت فى عصر بنى العباس ـــ وهو عصرها الذهبى ـــ لغة الدين والأدب والعلم والسياسة والإدارة والحضارة فى أكثر الدنيا القديمة .

وأصبح المسلم على اختلاف جنسه ينتقل من قطر إلى قطر فى عالمه الإسلامى ، كما ينتقل من بلد إلى بلد فى وطنه الأصلى . لا يجد مشقة فى التفاهم ، ولا صعوبة فى التعامل ، ولا شدة فى المعيشة .

ثم شغل المسلمون ـــ عربهم وعجمهم ـــ بالقرآن وفرغوا له . فكان دعاءهم فى المسجد ، ونظامهم فى البيت ، ومهاجهم فى العمل ، ودستورهم فى الحكومة فسرى هدية مهم مسرى الروح . وجرى وحيه فيهم مجرى الطبع . وأثّر فى ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم تأثيراً لم يؤثره كتاب سماوى آخر فى أهله .

ومن هنا كانت ثقافة الإسلام قائمة على ركنين أساسيين :
الدين بعلومه المختلفة .
واللغة بفنونها المعروفة .
وهذان الركنان يشد أحدهما الآخر ويمسكه .
فالإسلام بغير العربية يستعجم ويضمحل .

والعربية من غير الإسلام تنكمش وتزول .

ولا أعنى بالعرب دماً مخصوصاً ، بل أعنى كل متحدث بالعربية ، منتسب لأمتها ، معتنق لرسالتها أو مسالم لهذه الرسالة ، غير مُشاق لأهلها ، ولا مُتولٍّ لأعدائها .

فمن أعوزته هذه المواهب ، ولو وُلِد فى بطحاء مكة ، فليس بأهل للعروبة .
ومَنْ استجمعها من الزنوج فهو عربى أصيل لا يعيبه لون ولا يؤخره جنس .
روى الحافظ ابن عساكر قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، فقال : هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى النبى ﷺ) فما بال هذا وهذا ؟ (مشيراً إلى غير العرب من الجالسين) فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فأخذ بتلابيبه ، ثم أتى النبى ﷺ فأخبره بمقاله .

فقام النبى ﷺ مغضباً يجُرُّ رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخطبهم قائلا : « يا أيها الناس إن الرب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » .

* * *

ليست العروبة إذن تعصباً جنسياً لدم من الدماء أو لون من الألوان .. كما أنها ليست تعصباً ضد دين أو مذهب ، فإن الإسلام يعتمد فى قيامه وبقائه على الحرية المطلقة ، وهو يكافح لمنع الفتنة ، والإكراه ، والاستبداد ... ولا يحارب ألبتة لنصرة عقيدة أو إرغام أحد على اعتناقها .

وقد مات النبى العربى ، ودرعه مرهونة عند تاجر يهودى كان يحيا فى المدينة آمناً على نفسه ودمه وعرضه ، بل بلغ من أمانه العجيب أن طلب من سيد العرب رهناً كى يسلفه مايشاء ... ولم يَرَ الرسول العربى فى ذلك غضاضة مع اختلاف الدين ، وضعف اليهود ، وسبقهم القديم بالعدوان ..

* * *

وقد شاء الله أن تكون الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها العريقين موئل الإسلام والعروبة ، وحصنهما السامى منذ أجيال بعيدة ..

ولن ينسى التاريخ مواقف البطولة التى وقفها أجدادنا عندما كادت حضارة العالم تزول ، ومدنيته تُطمسُ ، بعدما انطلق التتار من الشرق ، والصليبيون من الغرب ، يدمرون أمامهم كل شىء ، ويخربون كل ما شادت الإنسانية من فضائل ومعالم ، ويطوون تحت أقدامهم العواصم الزاهرة والمدائن العامرة .

إن أجدادنا فى هذه الفترة العصيبة هم وحدهم الذين انتصبوا أمام المردة المنطلقين ، واستطاعوا أن يكسروا السيل الجائح ، وأن يردوه على أعقابه ، فانهزم الهمج المقبلون من الشرق ، وأدبر القراصنة الهاجمون من الغرب .

وبقيت حضارة العالم آمنة فى ربوعها ، ووديعة احتفظ بها الأسلاف للأخلاف ...

وكأن العناية العليا تأبى إلا أن تقوم بالدور نفسه ، وأن تجعل منا ــ نحن أبناء الجمهورية العربية المتحدة ــ امتداداً لصنيع آبائنا فى حماية الحضارة والتاريخ ...

والثورة التى قامت فى مصر من بضع سنين تعرف هذا الواجب حق المعرفة .

وفى شرح الدور الذى كُتِب علينا أداؤه يقول رئيس الحكومة كلمات يجب أن ننتهى عندها وألا ننحرف عنها ، وأن تكون ثقافتنا وسياستنا متفقة معها .

« لم يَعُدْ مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله ، وخارج حدوده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره » .

وقال : « ليس عبثاً أن التراث الإسلامى الذى أغار عليه المغول واكتسحوا فى غارتهم عواصم الإسلام القديمة ــ تراجع إلى مصر وأوى إليها ، فحمته ، وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى (عين جالوت) .

وقال : « ما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطاً بنا ، فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا فى نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة ، كانوا معنا تحت هذه السنابك .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين ، فانتقلت مراكز الإشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة ... ثم إلى القاهرة . ثم جمعها الجوار فى إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية » .

وقال : « ثم تبقى الدائرة الثالثة .. الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت : إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

لقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير .

لقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام » .

ثم قال : « أخيراً أعود إلى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به » .
ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه .
ونحن وحدنا بحكم (المكان) الذين نستطيع القيام به » .
هذه الفقرات من كلام رئيس الحكومة تجلو نقطة الانبعاث فى نشاطنا العام ، وتجلو ــ فى غير تعصب ــ الأواصر القائمة بين العروبة والاسلام .

* * *

وقيادة المسلمين لا يصلح لها إلا العرب ، وماينبغى أن ينازعهم عليها أحد .
فإن الإسلام يقوم على دعامتين جليلتين ، هما الكتاب الكريم ، والسنة المطهرة ...

والكتاب الكريم ــ كما رأينا ــ نزل بلغة العرب ، والرسول عربى الحياة والتراث ...

وما يفقه حقيقة الوحى ، ومهج الرسالة إلا خبير بأدب العروبة ، راسخ القدم

فى بيانها ، زواقة لطبيعة البلاغة العربية ، بصير بدلالات الكلام القريبة والبعيدة ، وبمعانيه الأصلية والثانوية ...

يستطيع كل امرىء أن يكون مسلماً عادياً ، ولكن لا يستطيع أن يكون فقيهاً فى الإسلام ، أو أميناً على دعوته ، أو مُوجِّها لسياسته إلا امرؤ عربى ...

ولا نعنى بالعروبة هنا الجنس ، بل نعنى اللسان ...
لا نعنى النسب القريب أو البعيد ، ولا الدم النقى أو المختلط ، بل نعنى العرب جميعاً سواء فيهم الصريح الأصل أو المستعرب الذى كان ينتمى إلى أى جنس آخر فى أى قارة من قارات الدنيا .

فما دام قد انسلخ من جلدته الأولى ، ودخل فى هذه الأمة الجديدة مذيباً نفسه فى كيانها ، مندمجاً بأفكاره ومشاعره فيها ، فقد أصبح منها دون نكير ولا غرابة .

ونحن نرى أبا حنيفة فقيهاً عربياً ، وصلاح الدين قائداً عربياً ، وسيبويه ، والزمخشرى ، والرازى ، علماء عرباً .

والألوف المؤلفة من الرجال الذين خدموا الإسلام فى شتى آفاق السياسة والثقافة والأدب والتشريع مهما كانت منابتهم الأولى هم عرب ، لا يفترقون فى قليل أو كثير عن العرب الأصلاء من بيت النبوة نفسه ...

وفى عصرنا هذا نلمح دولة تُعدُّ من أضخم دول الأرض ، إن لم تكن أسناها وأقواها ، وهى الولايات المتحدة الأمريكية .

إنه فى بوتقة هذه الدولة الناشئة من قرابة ثلاثة قرون فحسب نشأت جنسيات جديدة من أخلاط بشرية بعيدة المناسب والدين واللغة .

ومع ذلك فهذه الجنسية الأمريكية الجديدة تفردت بخصائصها ووجهتها ، وأصبحت وطناً واحداً لشعب واحد .

إن هذا مَثَلٌ صغير للعمل الضخم الهائل الذى صهر الإسلامُ به شتى الأجناس والألوان فى دين واحد ولغة واحدة ، فأصبحت هذه الأمة بتكوينها الجديد طوراً آخر للعروبة بعدما اتسعت دائرتها وتحددت وظيفتها فى العالم .

ونرى لزاماً علينا هنا أن نقول : إن هذا الشرف المتاح للعروبة لم يجئها من نسبها الأرضى ، بل جاءها من رسالتها السماوية .

فإن أجناس البشر لا يرجح بعضها البعض الآخر بشيء .

وما يظنه جنس ما من أنه أرقى من جنس آخر : محض هراء ..

ونحن العرب ما نعطى أنفسنا الحق فى قيادة روحية أو سياسية لأحد من الناس إلا لأن الله اصطفى لغتنا للحق الذى أوحاه ، وبعث منا النبى الذى ارتضاه ..

ويوم نفخر بأننا عرب وحسب ، فإننا نسقط عن المكانة التى رُشِّحْنا لها ، ونعطى الآخرين الحق فى الابتعاد عنا ، ونخون بذلك الأمانة التى وكلها الله إلينا ...

إن مطالبتنا بحق العروبة فى قيادة العالم الإسلامى كله ، وبحقها فى إرشاد الجنس البشرى أجمع يعود إلى تلك المواريث المقدسة التى آلت إلينا ، فخلدنا بها ، وسمتْ بسموها مكانتنا ...

والأخوة الإسلامية التى تجمع بين مختلف الأجناس الداخلة فى الإسلام لا تخدش هذا المبدأ ، فإن للقيادة فى أى ميدان خواص لا بد أن تتوفر لذويها .

وقيادة المسلمين من خواصها الأولى ، عروبة الشعور والتفكير واللغة والآراء يقول الأستاذ عمر بهاء الأميرى من محاضرة له بالأزهر :

« إن تميز العرب هذا مقيد بقيود القرآن والسنة التى تحفظ لِكُلِّ مقامه . وتعطى كل ذى حق حقه ، بل إن هذا التميز ما كان للعرب إلا بالإضافة إلى الإسلام الذى أشرق أول ما أشرق فى صميم بلادهم ، وتنزَّل وحيه على رسول منهم ، حمل عبئه وأوذى فى سبيله ، وبذل له من ذات نفسه ، وخاطب ــ أول ما خاطب قومه العرب ــ ربَّاهم عليه حتى خالط نفوسهم ، وامتزج بمشاعرهم وانطبعت بطابعه حياتهم كلها .

تذوقوا هديه ببصيرة وعقل ، فجعلوه لهم ناموساً ، واستجابوا لأمر الله الذى شرَّفهم بالقوامة عليه ، فنشروه فى الآفاق دستوراً إنسانياً عاماً .

لقد انخلعوا فى سبيله من ملكيتهم لأنفسهم ونذروها لله ، وجندوا رجولتهم كلها ، وخصائصهم كلها ، وطاقاتهم كلها . وساروا بمعادن نفوسهم التى صهرها أتون الصحراء ، وصاغها الإسلام على أبدع نظام ، وصقلتها صحبة الرسول وقيادته ..

كافحوا ينقذون البشر من عبودية البشر ، وانطلقوا يعاملون الناس بالرفق ويدعوهم إلى النجاة . واستفادوا من تراث الحضارات دون استعلاء . وسبكوه فى قوالب الفلسفة العربية الإسلامية الخيرة النيرة ، ليقدموه للإنسانية الضالة المعذبة ، علاجاً شافياً ، ونوراً هادياً ، ودرعاً واقياً ...

إن الرسول ﷺ ألحق المسلمين الصادقين بالعرب فقال على ماروى ابن كثير عن معاذ بن جبل : « ألا إن العربية اللسان . ألا إن العربية اللسان » .

ووضح ذلك بحديث شريف آخر رواه الحافظ ابن عساكر بسنده عن مالك . قال عليه الصلاة والسلام : (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم . وإنما هى اللسان . فمن تكلم بالعربية فهو عربى) .

بل ذهب إلى أبعد من ذلك فألحق أهل السابقة والجهاد من المسلمين غير العرب ببيت النبوة فقال : (سلمان منا أهل البيت ؛ وبلال منا أهل البيت . وصهيب منا أهل البيت) .

ولهذا طابت نفوس المسلمين بهذه القيادة العربية العادلة ، التى لا ترى فضلاً لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، والتى لا يمكن أن يدوم للإسلام حكم صحيح وشمل جامع إلا بها .

فيكون النبى ﷺ أول من وضع القومية العربية [1] المحكمة الشاملة ، العاقلة العاملة ، موضع الحياة الفعالة ، والحكم العادل البنّاء ..

وقد تأسست بذلك حضارة إنسانية فذة ، جمعت فى كيانها الخالد مادة

---

(١) فكرة المحاضر عن معنى القومية ، بعيدة كل البعد عن التفسير الفرنجى الشائع لها فى أذهان أغلب المعاصرين .

الحضارات السالفة ، وروح الديانات والرسالات السابقة ، وصفوة الأهداف السامية والمثل العليا المتفق عليها بين الأمم .

كُلَّ ذلك بصدر رَحْب وتطلع إيجابى ، وتوليد بارع ، وسع آفاق المعارف الإنسانية ، وارتقى بالوجدان البشرى العام وربط الإنسان بخالقه دون وسيط ، ونفذ بروحه الشفاف إلى ما وراء الطبيعة ، وحكم فى مادتها يسخرها بالعلم لسعادة البشر ، ووضعه فى سائر تصرفاته أمام تبعاته الهائلة المقدسة وجهاً لوجه أمام الله الخلاق العظيم .

وحسب ذلك من وازع رهيب ينظم العلائق بين الراعى والرعية ، بين الحكام والمحكومين ، بين العرب وغير العرب من إخوانهم المسلمين ، بين المسلمين وسواهم من المواطنين .

* * *

والتفسير الصحيح للقومية العربية يقرره المحاضر فيقول :

القومية واقع تاريخى ، ووجود جغرافى ، وحقيقة إنسانية .

فالعالم معمور بأقوام هنا وأقوام هناك ، فهو مكون من شعوب وقبائل ـــ وبلغة العصر ـــ مُكوَّن من قوميات متعددة متميزة . يقول الله تعالى :

« **ومِنْ آياته خَلْقُ السمواتِ والأرضِ واختلافُ ألسنتكم وألوانِكُم** »[1] .

ويقول جَلَّ جلاله :

« **يأيها الناسُ إنَّا خلقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائِلَ لِتعارفوا ، إنَّ أكرمكُم عند الله أتقاكم** »[2] .

ومن نواميس الطبيعة البديهية التى ترددها الأمثال السائرة أن (شبه الشىء منجذب إليه) وأن (الجنس يألفه الجنس) فمن نتيجة التفاعل الاجتماعى ، والاصطفاء والتمركز عبر العصور تكونت الأقوام المختلفة ، وتكوَّنت قومياتها ..

---

(١) الروم : ٢٢ .

(٢) الحجرات : ١٣ .

فالقومية هى إذن (الواقع التاريخى واللغوى والثقافى والجغرافى العام لقوم من الأقوام) .

وأما الدين فهو رسالة وهداية تعالج الحياة ، وترسم للناس سبيل الرشاد ، وتتجه بهم نحو الأفضل .

وقد أراد الله للقوميات التى تسير فى طريقها السوى أن تتعارف ــ فى المعنى الواسع للتعارف الذى يقتضى حسن الصلة ، والنظر فى خصائص كل قوم ومميزاتهم ، وتبادل المنافع وإعمار الكون وتحرى المصلحة العامة ــ حيث تتحقق التقوى ــ وهى إرادة الخير للناس كافة فيما يرضى الله .

وهكذا نجد الصلة التى شرعها القرآن بين الأقوام ، ورسم خطوطها الله ــ والتى تعارف العصر على دعوتها بالقومية ــ صلة غير عنصرية ، لأن كل الأقوام ناس ، والناس من ذكر وأنثى .

وليست انعزالية لأنها (لتعارفوا) وليست تعصباً وأنانية لأن « أكرمكم عند الله أتقاكم » !

وفى ضوء هذا الفهم قد يكون تحديد جغرافية العالم على أساس القوميات الواعية هو الطريق الطبيعى الأفضل لسعادة الإنسانية وخيرها وإبداعها .

ويكون تنافس القوميات إذ ذاك لتحقيق إنسانية أكمل ، وحياة أهنأ ، لا حرباً لكسب مناطق النفوذ ، وسعياً وراء استعباد قوم لقوم ، واستلاب خيراتهم وثرواتهم ، لتجر قومية ما ذيول الهوان والحرمان ، وترفل قومية أخرى بحلل الترف والسرف ، والأشر والبطر .

* * *

والأخوة الإسلامية التى تجمع بين مختلف الأجناس الداخلة فى الإسلام لا تخدش هذا المبدأ ، فإن للقيادة فى أى ميدان خصائص لا بُدَّ أن تتوفر لذويها .

وقيادة المسلمين من خواصها الأولى عروبة الشعور والتفكير واللغة والآراء .

وقد حاول ناس من الترك والفرس وأشباههم أن يقودوا الإسلام مع بقائهم على تركيتهم وفارسيتهم ، أو مع ارتداء لباس العروبة على جلدة فارسية وتركية ، فكانت هذه المحاولات سبب بلبلة علمية وسياسية لا يزال الإسلام يتعثر إلى اليوم فى عقابيلها .

وعَجْزُ هؤلاء الأعاجم عن القيادة الصحيحة لا يرجع إلى دَخَلٍ فى إيمانهم فإن حبهم للإسلام مكين ، وولاءهم له ظاهر .

يبد أن العاطفة الحارة لا تغنى عن الفهم الحصيف والبصر النافذ .

يُحكى أن تركياً نام فى فراشه على عادته كل يوم ، ثم تذكر بغتة أنه وضع المصحف فى نافذة عند قدميه ، فهض مذعوراً وانتضى سيفه ، ووقف إلى جوار النافذة وهو يهتف : مصحف شريف .. !!

لكن هذه العاطفة النبيلة تجاه المصحف لم تمكن الأتراك من غرس الإسلام على أسس صحيحة فى شرق أوروبا ، ولا من استبقائه صحيحاً بلاده نفسها .

وأنت تعرف أن عمر لما فتح بيت المقدس أبى أن يصلى فى كنيستها مخافة أن يتخذ المسلمون مصلاه مسجداً .

أما محمد الفاتح فعندما دخل القسطنطينية ، حوَّل كنيستها الكبرى (أيا صوفيا) إلى مسجد جامع .

وقد يعتذر البعض للسلطان التركى بأن مسلكه كان على مبدأ المعاملة بالمثل .

ولسنا بصدد مناقشة هذه السياسة . ولكنا نريد أن نؤكد الحقيقة التى نقررها هنا : وهى أن العرب وحدهم هم بيئة القيادة الصحيحة للمسلمين ، وأن على الحكومة الإسلامية أن تحافظ على خصائص هذه البيئة ، إذا أرادت أن تبقى ينابيع الإسلام صافية لا يشوبها كدر ، وأن تبقى دعايته مجدية لا يعتريها عوج .

* * *

الحرص على بقاء الإسلام نقى الجوهر قريب المأخذ ، مستجمعاً أسباب القبول التى أتى بها من عند الله هو السر فى جعل قيادته عربية واضحة العروبة .

فإن الأعجمين قد يدركون مظاهره وحدها ، وقد تدِقّ عليهم حكمة التشريع فى أغلب الأحكام ، فيتشددون حيث يمكن التيسير ، أو يشتطون حيث ينبغى الوقوف ...

وقد ثار النزاع قديماً بين بيوت عربية خالصة وبيوت مستعربة من أصول شتى ، وسجل التاريخ بعضاً من أدوار هذا الصراع فى تنازع بين العرب والفرس ، أو فى النزعات الشعوبية الأخرى . وسنفرد لذلك الموضوع فصلاً خاصاً .

ولكن الذى نسارع إلى بيان خطره ، ونراه شديد اللصوق ببحثنا هذا ، هو انفراد الترك بقيادة العالم الإسلامى أحقاباً طوالاً ، مع حرصهم الشديد على بقائهم كما هم ..

ونحن نكره التحامل ، ونرفض تجريد جنس ما من فضائله ، ونحفظ للترك مواقف أحسنوا بها إلى أنفسهم وديهم .

بيد أننا نذكر آسفين أن فترة القيادة التركية للإسلام كانت وبالاً على الإسلام وأمته الكبيرة ، وأن العرب والعجم والهنود والسودان فى ظل هذا الحكم المغلق جمدوا جمود الموت ، وإن العلل التى أصابت المسلمين فى القارات القديمة كلها ، وطوت أعلامهم ، ونشرت الجهالة فى ربوعها وغلّقت أبواب المدارس ، وطوَتْ مجالس البحث ، وقضت على مظاهر العمران .. هذه العلل بدت واستفحلت فى ظل الترك .

ثم سقط العالم الإسلامى بقضِّه وقضيضه فى قبضة الاستعمار نتيجة الركود التام الذى أماته مادياً وأدبياً طول هذا العهد الأشأم .

ونحن ــ وقد وعينا تجارب الماضى ــ نحب أن نبنى النهضة الإسلامية على دعائم عربية خالصة ، وأن نتيح للأمة أداء واجبها العتيد ورسالتها الكبرى .

وبذلك يستعيد العرب أمجادهم ، وتتهيأ للإسلام ــ بهم ــ قيادة أحكم وأبصر .

والربط بين العروبة والإسلام قضية بديهية ، وللأستاذ إسماعيل مظهر كلام فى هذا الرباط من الخير أن نثبته .

فإن هذا الأديب بدأ صدر شبابه داعية لمذهب النشوء والارتقاء ، وكانت مجلته « العصور » تخاصم الدين كله ، وتصرف الشباب عنه بإلحاح .

ثم شاء الله أن يعود صاحبها إلى الإسلام ، وأن يتعرف على ربه تعرُّف الباحث اليقظ ، ولم يجد الرجل عُسْراً فى أن يلمح الصلة بين العروبة والإسلام ، فكتب يقول تحت عنوان « الإسلام والقومية العربية » :

« ينبغى لكل مسلم أن يكون فى دخيلة نفسه عربياً روحاً وعقلاً ، مثله الأعلى آداب العرب وآداب الإسلام ، سياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الإسلام ».

وإنما أقرن الكلام فى العروبة بالإسلام ، لأن الثابت الذى لا لجاج معه ولا ريب بداخله ، أن القرآن حين نزل بلغة العرب ، فقد نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا ، فالعربى النصرانى مسلم بصفاته العربية ، والمسلم الهندى أو الفارسى عربى بما فى الإسلام من روح العرب [1].

ليس فى مستطاعنا أن نفصل الإسلام عن العروبة أو نفصل العروبة عن الإسلام ، فإن الرابطة التى تربطهما رابطة طبيعية كالرابطة نظام الأجرام السماوية وقوة الجاذبية .

وإنما كان الواجب علينا أن ندرك الوضع الإسلامى الصحيح من حيث إنه دين جُعِل من أجل الإنسان ولم يُجعل الإنسان من أجله ، ومن هنا ندرك أن الاسلام

(١) الزعم بأن الإسلام دين عربى الخصائص والوجهة لا نصيب له من الصحة ، والصحيح أن يوصف الإسلام بأنه دين إنسانى الخصائص والوجهة ، وأنه يسوى بين أجناس البشر قاطبة فى الحقوق والواجبات والتكاليف والأجزية .

وقد روَّج دعاة البعث العربى القول بأن الإسلام نهضة عربية خالصة ، وبالتالى يعدون محمداً ﷺ زعيماً عربياً فحسب ، لا صلة له بالوحى ، ولا تربطه بالسماء شريعة ، وهذا هو الكفر بعينه .

إن الإسلام شرَّف العرب يوم نزل فيهم وسار بهم .

وسترى فى الفصل المقبل طبيعة هذا الاختصاص .

أنزل لصلاح البشر جميعاً ، وإنه من ناحية أنه دين فهو عقائد يتقيد بها المسلم ، وأما من حيث إنه أخلاق ومعاملات فهو يعم الناس أجمعين .

فالمسلم ينبغى له أن يعتقد أن حريته مساوية فى القيمة لحرية غيره ، وأن استقلاله مساوٍ فى القيمة لاستقلال غيره من غير تفرقة بين الناس على اختلاف عقائدهم ونحلهم .

وأى شيء يطلب من دين أو شريعة أكثر من هذا ؟

على هذه الصورة ندرك من الإسلام أنه دين تطور ، مادام من مقتضياته أن يتابع الفطرة ، ويتمشى مع أرقى الأنظمة الاجتماعية ، بما فيه من روح المرونة والطواعية لحاجات البشر على مختلف العصور .

فالإسلام مثلاً لايعادى الاشتراكية [1] بل قد يدعو إليها ، ويستجيب لها إذا أصبح النظام الاشتراكى صالحاً لنظام المجتمع البشرى ، ولكنه إلى جانب هذا يحترم حرية الفرد والكرامة الإنسانية ولا يدعو إلى حرب الطبقات ومايجر إلى حرب الطبقات من نظريات لم يقرها إسلام ولو اعترف بها كأمر واقع .

أما الأسس الانسانية التى نطلبها للقومية العربية فأرى أنها مكفولة بمبادىء الإسلام ـــ منظوراً إليه من الزاوية التى شرحتها قبلاً ـــ وأعتقد أنها الحق وأنها الواقع » .

ومع ما فى هذا الكلام من ثغرات ، سببها أن القائل اهتدى إلى الإسلام آخر عمره بعد أن كان مادياً صِرْفاً ، فقد قبلناه ـــ على إغماض ـــ لحرصه الظاهر على ربط العروبة بالإسلام .

* * *

(١) إذا كانت الاشتراكية تعنى العدل الاجتماعى إلى جوار ما فى الدين من تعاليم أخرى ، فالإسلام يقرها ، وإلا فلا ..